ماستر تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

السداسي : الثالث

المقياس : الاستشراق وتاريخ الغرب الإسلامي.

المحاضرة رقم 2 :

الاستشراق : المفهوم و الدوافع و الأهداف

1- المفهوم :

أ- المفهوم اللغوي:

عند النظر إلى لفظة استشراق نجد أنها مصوغة على وزن استفعال، و لوجدناها مأخوذة من كلمة شرق ثم أضيف إليها ثلاثة حروف هي الألف و السين و التاء ، و معناها طلب الشرق ، و ليس طلب الشرق سوى طلب علوم الشرق و آدابه و لغاته و أديانه ، و جاء في المعجم الوسيط " شرقت الشمس شرقا و شروقا إنا طلعت " ، و في لسان العرب : شرق شرقت الشمس تشرق شروقا و شرقا : طلعت ، و اسم الموضع المشرق... و التشريق الأخذ في ناحية المشرق ، يقال : شتان بين مشرق و مغرب ، و شرقوا ذهبوا إلى الشرق ، و كل ما طلع من المشرق فقد شرق ، و في الحديث النبوي الشريف من رواية أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لا تستقبلوا القبلة و لا تستدبروها بغائط أو بول ولكن شرقوا أو غربوا " .

أما في اللغات الأوروبية فهناك تعريف آخر يدل على أنّ المقصود بالشرق ليس الشرق الجغرافي و إنما الشرق المقترن بمعنى الشروق و الضياء و النور و الهداية ، و يرى البعض أن كلمة استشراق لا ترتبط فقط بالمشرق الجغرافي و إنما تعني أن الشرق هو مشرق الشمس ، و لهذا دلالة معنوية بمعنى الشروق و الضياء و النور بعكس الغروب بمعنى الأفول والانتهاء .

و اللفظ ORIENT في الدراسات الأوروبية يشير إلى منطقة الشرق المقصودة بالدراسات الشرقية بكلمة تتميز بطابع معنوي و هو " Morgenland " و تعني بلاد الصباح ، و معروف أن

الصباح تشرق فيه الشمس، و تدل هذه الكلمة على تحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن معنى النور و اليقظة ، و في مقابل ذلك نستخدم في اللغة كلمة Abendland و تعني بلاد المساء لتدل على الظلام و الراحة ، و في اللاتينية تعني كلمة Orient يتعلم أو يبحث عن شيء ما ، و بالفرنسية تعنى كلمة Orienter وجه أو هدى أو أرشد ، و بالإنجليزية Orientation و orientate توجيه الحواس نحو اتجاه أو علاقة ما في مجال الأخلاق أو الاجتماع أو الفكر أو الأدب نحو اهتمامات شخصية في المجال الفكري أو الروحي ، و بذلك يتبين أن مصطلح الاستشراق ليس مستمدا من المدلول اللغوي ، بل من المدلول المعنوي لشروق الشمس التي هي مصدر العلم .

ب – **المفهوم الاصطلاحي للاستشراق** :

إنّ مفهوم الاستشراق (**orientalism**) يعني علم الشرق أو علم العالم الشرقي ، و عرّف البعض الاستشراق أيضا بأنه ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي ، و التي شملت حضارته و أديانه و آدابه و لغاته و ثقافته ، و أحيانا يقصد به أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز المعرفي و العرقي و الإيديولوجي بين الشرق والغرب ، و تارة يراد به ذلك العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة و التحليل من قبل علماء الغرب .

و بصفة عامة يمكن تعريف الاستشراق بأنه أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي و معرفي بين الشرق و الغرب ، و يستخدم دراسات أكاديمية يقوم بها علماء غربيون للإسلام و المسلمين من شتى الجوانب عقيدة و شريعة و ثقافة و حضارة و تاريخ و نظم و ثروات و إمكانات ، سواء أكانت هذه الشعوب تقطن شرق البحر الأبيض أم الجانب الجنوبي منه ، و سواء أكانت لغة هذه الشعوب العربية أم غير العربية كالتركية و الفارسية و الأوردية و غيرها من اللغات ، لأهداف متنوعة و مقاصد مختلفة .

و مع أن مصطلح الاستشراق ظهر في الغرب منذ قرنين من الزمان على تفاوت بسيط بالنسبة للمعاجم الأوروبية المختلفة ، لكن الأمر المتيقن أنّ البحث في لغات الشرق و أديانه و بخاصة الإسلام قد ظهر قبل ذلك بكثير .

أما المفكر إدوارد سعيد فيعرّف الاستشراق بأنّه نمط من الإسقاط الغربي على الشرق **و** إرادة السيطرة عليه ، و يرى د. رضوان السيد أنّ الاستشراق يتناثر و يدخل في تخصصات متباينة كالتاريخ و السوسيولوجيا و الأنتربولوجيا و الاقتصاد و السياسة ، و لم يعد هناك عالم واحد اسمه الاستشراق ، بل هناك عوالم متباينة يحمل كل منها عنوان المجال الذي يهتم به ، فإذا كانت مفاهيم الشرق و العالم الثالث

و الشرق الأوسط متباينة و غير علمية ، فإنّ مفهوم الاستشراق صار اليوم كذلك ، أما المستشرق فهو عالم متمكن من المعارف الخاصة بالشرق و لغاته و آدابه .

و يرى كثير من الباحثين أنّ جيرار دي أورلياك الفرنسي هو أول من استشرق ، و يرى المفكر الجزائري مالك بن نبي في كتاب له تحت عنوان إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث ضرورة تقسيم دلالة مصطلح الاستشراق فيقول" : إننا نعني بالمستشرقين الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي و عن الحضارة الإسلامية .

و من التعريفات الاصطلاحية للاستشراق أنّه مجموع الدراسات التي يقوم بها أهل الغرب عن الشرق ، ديانته و أعرافه و ثقافته ، فقد أطلق على الدراسة التي تعنى بدراسة العالم الشرقي مصطلح الاستشراق ، و أطلق على الغربيين الذين يقومون بالدراسة الشرقية أنّهم جماعة من المؤرخين و الكتاب الأجانب الذين خصصوا جزء من حياتهم في دراسة الشرق و تتبع المواضيع التراثية و التاريخية و الدينية و الاجتماعية و غيرها للشرق .

3 – دوافع الاستشراق: تتعدد الدوافع التي أدت إلى الاستشراق و يمكن بيانها فيما يلي:

- الدافع الديني:

إنّ الدافع الأول للاستشراق عند الغربيين يتمثل أساسا في الدافع الديني ، فقد بدأ برحلات الرهبان إلى بلاد الأندلس ، و استمر كذلك حتى وقت متأخر من الفترة المعاصرة ، و هؤلاء كان همهم الأول الطعن في الإسلام و تشويه محاسنه و تحريف حقائقه ، من أجل إثبات أنّ الإسلام دين لا يستحق الانتشار ، و أنّ المسلمين قوم همج لصوص و سفاكو دماء ، يحثهم دينهم على الملذات الجسدية و يبعدهم عن كل سمو روحي و خلقي .

و هناك الهدف التبشيري الذي لم يتناسوه أبدا في دراساتهم العلمية ، و هم قبل كل شيء "رجال دين"، فأخذوا يهدفون إلى تشويه سمعة الإسلام لإدخال الوهن إلى نفوس بعض المسلمين ، و التشكيك في التراث الإسلامي و الحضارة الإسلامية ، و كل ما يتصل بالإسلام من علم و أدب و تراث .

- الدافع الاستدماري :

لما انتهت الحروب الصليبية بهزيمة الصليبيين لم يصب اليأس الغربيين من العودة إلى الاحتلال و ممارسة سياسة الاستدمار في بلاد الإسلا م ، فاتجهوا إلى الدراسة الشاملة لشؤون الدول الإسلامية من عقيدة و عادات و ثروات بغية التعرّف على مواطن القوة فيها فيضعفوها ، و إلى مواطن الضعف فيستغلوها ، و لما

تم لهم الاستيلاء العسكري و السيطرة السياسية ،كان من دوافع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحية و المعنوية في نفوس أبناء الأمة الإسلامية ، و بث الوهن و الارتباك في التفكير عن طريق التشكيك بفائدة ما بأيدينا من تراث و ما عندنا من عقيدة و قيم إنسانية ، فنفقد الثقة بأنفسنا و نرتمي في أحضان الغرب نستجدي منه المقاييس الأخلاقية و المبادئ العقدية ، و بذلك يتم لهم ما يريدون من خضوعنا لحضارتهم و ثقافتهم خضوعا لا تقوم لنا من بعده قائمة .

- **الدافع التجاري** :

يعتبر من الدوافع التي أدت إلى تنشيط الاستشراق ، حيث رغب الغرب في التعامل مع الدول العربية لتنشيط التجارة و ترويج البضائع و شراء الموارد الطبيعية الخام بثمن بخس ، و القضاء على الصناعة المحلية التي كان لها مصانع عدة في دول عربية و إسلامية.

- **الدافع السياسي**:

تجلى دافع آخر في العصر الحاضر بعد استقلال عدد من الدول العربية و الإسلامية ، و هو بث الدسائس بينها بحجة توجيه النصح و إسداء المعونة بعد أن درسوا نفسية كثير من المسؤولين في البلاد ، و عرفوا نواحي الضعف في سياستهم العامة ،كما عرفوا الاتجاهات الشعبية الخطيرة على مصالحهم.

- **الدافع العلمي**:

أقبل نفر قليل جدا من المستشرقين على الاستشراق بدافع من حب الإطلاع على الجوانب الحضارية لمختلف الأمم و أديانها و ثقافتها و لغاتها ، و هؤلاء كانوا أقل من غيرهم في الأخطاء و خاصة في فهم الإسلام و تراثه ، لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس و التحريف و التشويه ، فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق و إلى المنه ج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين ، بل إنّ منهم من اهتدى إلى الإسلام و آمن بالرسالة المحمدية ، و لكنّ أبحاثهم الموضوعية لا تلقى ر واجا ، لا عند رجال الدين و لا عند رجال السياسة و لا عند عامة الباحثين ، و بالتالي فهي لا **تدر** علبهم ربحا ، و لهذا ندر وجود هذه الفئة من المستشرقين .

4 – أهداف الاستشراق و وسائله :

أ – هدف علمي مشبوه

التشكيك بصحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم و مصدرها الإلهي، فجمهورهم ينكر أن يكون الرسول صلى الله عليه و سلم نبيا موحى إليه من عند الله عز وجل ، و يتبع ذلك أن يكون القرآن كتابا

منزلا عليه من عند الله تعالى ، و يلحق بهذا الأمر إنكارهم أن يكون الإسلام دينا من عند الله و إنما هو في نظر أولئك المستشرقين ملفق من الديانتين اليهودية و النصرانية ، و ليس لهم في ذلك مستند يؤيده البحث العلمي و إنما هي ادعاءات واهية .

و يتبع ما سبق ، أمر التشكيك في صحة الحديث النبوي الشريف الذي اعتمده العلماء المحققون و جهابذة النقاد ، و يتذرع هؤلاء المستشرقون بما دخل على الحديث النبوي من وضع و دس متجاهلين تلك الجهود العلمية الرائدة التي بذلها علماء الجرح و التعديل المستندين في التمحيص إلى قواعد صارمة في النقد والتثبت مما لم يعهد المستشرقون في ديانتهم عشر معشاره في التأكد من صحة كتبهم المقدسة ، و قد ناقشهم في ذلك الباحث مصطفى السباعي نقاشا علميا في كتابه القيم الموسوم بالسنة و مكانتها في التشريع الإسلامي .

و كذلك التشكيك بقيمة الفقه الإسلامي الذاتية ، فالتشريع الفقهي الإسلامي الهائل الذي لم يجتمع مثله لجميع الأمم في جميع العصور، فلم يجدوا بدا من الزعم من أنّ هذا الفقه مستمد من الفقه الروماني ، و هذه دعوى من السهولة بيان بطلانها بمقارنة بسيطة بين الفقهين .

و أيضا التشكيك في قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي لكي تظل الأمة العربية الإسلامية عالة على مصطلحاتهم التي تشعرنا بفضلهم و سلطانهم الأدبي علينا ، و تشكيكهم في غنى الأدب العربي ، و إظهاره مجدبا فقيرا لنتجه إلى آدابهم ، و ذلك هو الاستدمار الأدبي الذي يبغونه مع الاستدمار العسكري الني يرتكبونه .

- الأهداف الدينية والسياسية:

تشكيك المسلمين بنبيهم و قرآنهم و شريعتهم و فقههم ، و تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري ، فيدّعون أنّ الحضارة الإسلامية منقولة عن الرومان ، و لم يكن العرب و المسلمون إلا نقلة لفلسفة تلك الحضارة و آثارها .

5 – بعض مؤلفات المستشرقين المليئة بالأحقاد :

- دائرة المعارف الإسلامية .
- موجز دائرة المعارف الإسلامية .
- دائرة معارف الدين و الأخلاق .
- دائرة معارف العلوم الاجتماعية .
- دراسة في التاريخ (القسم المتصل بالإسلام و رسوله) تأليف أرنولد توينبي .